

# الأديب العربي والثورة التكنولوجية

بقلم الدكتور أبو القاسم عبد الله

الحضارة الغربية ؟ ويبدو ان الذين طرحوا الموضوع اعلاه مؤمنون بأن الجواب على ذلك سيكون بالإيجاب ، ولم يبق علينا سوى ان نبحث ونقيم دور الأديب ازاء هذه الظاهرة . وما دمت لا اشاطر هؤلاء رأيهم ، فاني سأتناول الموضوع على أنه « امل » او « حلم » فقط وعلى أنه « تخطيط » لمستقبل قد يكون قريبا او بعيدا . ذلك ان الامة العربية اذا ظلت على ما هي ، فلن تدخل في نظري عصر التقنية حتى في القرن الواحد والعشرين . تبقى قضية اخرى تحتاج الى جواب واضح ، وهي هل من الممكن ان ينتج الأديب « ادبا تخيليا » مثل ما ينتج العلماء « علما تخيليا » ؟

حقا لقد شاهدنا كثيرا من النوع الاخير فد اصبح واقعا كصنع الطيران وغزو انفضاء ، والوصول الى القمر ، ولكن هل في امكان الأديب ان يخطط لمجتمعه بعد ثلاثين سنة مثلا فينتصروه مجتمعا موحدا عقليا مبدا متمتعا مسيطرا على كل المخترعات العلمية مضيئا اليها تجاربه الذاتية ؟ وبمباراة اكثر وضوحا : هل الأديب العربي في النصف الثاني من القرن العشرين اديب واصف أو موجه راند في البحث عن مستقبل افضل او داعية تغيير في حاضره البائس ؟ من الواضح ان الذين طرحوا هذه المشكلة لم يتوقعوا كل هذه التساؤلات .

ولكي تتمكن من درس هذا الموضوع بشيء من الاستيعاب والعناية التي يحتاجها رأينا ان ندرسه من هذه الزوايا : الأديب امام مشكل التراث ، والمحيط السياسي والاجتماعي للأديب ، بوادر الاتجاه العلمي في المجتمع العربي الحديث ، علاقة الأديب العربي بالتقنية المعاصرة ، ثم الأديب والاتجاه التقني لامته .

ففي الوقت الذي يتحدث فيه ادياء العالم الاول والثاني عن « عصر ما بعد الحضارة » ما زال الأديب العربي يبحث عن نفسه في مجموعة من التقانيد والاساطير والآثار التي نسميها التراث . والواقع ان التراث العربي الاسلامي غني بنفسه وتجارب الشعوب التي اعتنقت الحضارة العربية الاسلامية ، ورغم أن العقل العربي يميل بطبعه الى الشعرية وال عاطفية والخطابية فانه أنتج ، ولا سيما في مرحلة صحوته الكبيرة روائع علمية اضاءت لما نسميه اليوم العالم الاول معالم الطريق عندما ابتداء هذا العالم يكشف نفسه كما نحاول نحن اليوم ان نكتشف أنفسنا . ولست بحاجة الى التذكير بالاعمال العلمية التي ابدعها عقل الرازي والبيروني وغيرهما . كما انني لست بحاجة الى التذكير بالفتح الذي قام به هؤلاء وأمثالهم نحو حضارة الاغريق والهند والفرس وهي القضية انني ما زال يحلو لبعض أنصار

موضوع « الأديب العربي والثورة التكنولوجية » هو أهم الموضوعات المقترحة في هذه الدورة من حياة الاتحاد . فلا دراسة الاتجاهات الادبية المعاصرة ولا موقف الأديب العربي من الاستعمار والصهيونية بجديدين في نظري . ونعتقد كما اعتقد الذين اقترحوا هذا الموضوع ، ان الوقت قد حان للمنايا بهذا الجانب من الأديب العربي . ذلك انه وسيلتنا الى معرفة مواقع أقدامنا امام تحديات العصر . فاذا كان اديب العربي يرود في هذا الطريق فيجب ان نشعر بالتفاؤل والاطمئنان على المستقبل ، واذا كان الأديب ما يزال يعيش في خيام التراث والميتافيزيقيا الشعرية فيجب علينا ان نشاءم ونسوق ناقوس الخطر .

واعتقد ان الذين اقترحوا دراسة الأديب العربي والتكنولوجية كانوا يهدفون الى تحسس العلاقة بين العلم والأديب ، او بين واقع العالم الثالث وواقع العالم الاول . ولا شك ان التحديد الزمني لهذا الموضوع ( النصف الثاني من القرن العشرين ) يعني أشياء كثيرة عند العرب . فخلال العقدين الماضيين شهدت الامة العربية احداثا خطيرة في حياتها من تورات سياسية ضد الاستعمار والنفوذ الاجنبي وتجارب فاشلة للوحدة الشاملة ، وهزائم متكررة على يد الصهاينة بالاضافة الى محاولات داخلية للخروج من كابوس التخلف المتمثل في الاقطاع والامية . وكل هذه الاحداث جعلت عددا من المفكرين العرب وبعض الملاحظين الاجانب ، يحكمون على ان سبب فشلنا في الداخل والخارج هو التخلف التقني وشيوع الخرافات والتقاليد البالية بيننا وضعف الايمان بالعلم . وباختصار كوننا لا نعيش عصرنا . فطرح موضوع الأديب والثورة التكنولوجية في هذا الظرف هو اذن محاولة لمعالجة هذه المشكلة ودور الأديب ازاءها . ولكن هناك خطرا في معالجة هكذا الموضوع ، ذلك ان العنوان بصيغته الحالية يتناول موقف الأديب بالنسبة لقضايا المستقبل في مجتمعه . وهل هذا ممكن ؟ وهل من المفروض على الأديب ان يتنبأ بما سيحدث لامتسه في نهاية القرن العشرين ؟ او هو مفيد بثقافته ومحيطه الاجتماعي بحيث لا ينطلق اكثر من مد بصره ؟ ثم هل على الأديب ان يصف ويتناول الحاضر فقط او عليه ان يتمثل تراث حضارته ليخلق منها نماذج المستقبل ؟

هذه بعض الاسئلة التي خطرت لي وأنا أقلب هذا الموضوع على وجوهه . ويضاف الى ذلك سؤال آخر هو همزة الوصل : هل ان الامة العربية ( أمة الأديب ) قد دخلت فعلا عصر التكنولوجية حتى ندرس العلاقة بين الأديب وبين هذه الظاهرة التي تعتبر أهم ما أنتجت

ولكن في هذا المجتمع يتحرك الاديب ، وهو اليوم بين ثلاث قوى ضاغطة عليه بعنف ، وهي الامية تفصله عنه . ومن ثم فتأثيره في هذا المجتمع سيظل محدوداً . ان صوت انواعه والسياسي وحتى المنفي ينفذ الى دواخل الاسرة وطبقات الفلاحين وورشات العمل بينما يظل صوت الاديب في عزلة عن هذه الميادين . فالامية تجعل جمهور الاديب قلة من الناس هم في الواقع غير الجمهور الذي يريد الحديث اليه والتعبير عن تطلعاته ، والثقل المحفوظة ثقافيا والتي فلنا انها اساسا اقطاعية بورجوازية هي التي يمكنها ان تفهم الاديب ولكن مصانعها ومصالحه منعاضة في اغلب الاحيان . وبلاضافة الى ذلك فان (النخبة) التي خلفت الاستعمار لدى شعوب العالم الثالث تعاني من مركبات متعددة ، فهي تعيش حالة على رصيد حضاري مستورد ، وهي مفصولة عن قاعدة الهمم الاجتماعية ، وهي تشن حربا على التعبير الحر والشهد السياسي ، وهي بالتالي تقوم على نظرة ضيقة في اساليب الحكم وتساعد التكنولوجيا على خلق الحريات وازالة حكم مطلق . والعالم العربي اليوم واقع تحت وطأة هذه الظاهرة من الحكم . فمصادرة الرأي واصدار احكام انفي والسجن وادارة ابلاد بدون مراعاة الحد الأدنى من النظم السياسية والحريات المدنية ، كلها تجعل الاديب يعيش في دوامة من الفراق والغربة وانخوف ان ظل ينتج او في كابوس العزلة والسيان ، ان فضل الصمت .

يضاف الى ذلك ان الاستعمار التقليدي لم يخرج من الوطن العربي حتى ارسى في قلبه قاعدة ( اسرائيل ) ينقص منها على الحركات التحررية ويراقب التطورات الداخلية في اجزاء هذا الوطن التي قد لا تكون في صالحه . وهذه القاعدة التي يقوم عليها الصهاينة لها مهمة واضحة في الوطن العربي ، فهي تخيف الحكام العرب وتجعلهم يحافظون على كراسيهم ، ويستمتعون في المحافظة عليها ، وهي تتدخل لحماية هؤلاء الحكام عند الحاجة ضد اي تيار نقدي او وحدي ، وهي تثير الرعب بوسائل العلم الحديثة وبتقدم التقني ، فتجعل اي تحرك ضدها امرا مستحيلا ولا طائل وراه . والعرب الذين يبررون تنازلهم امام هذه القاعدة بنسوى الخوف من ( الحرب الالكترونية ) هم واقعون تحت تأثير هذه الدعاية النفسية الخطيرة . وبدل ان يتجه الحكام العرب والنخبة العربية نحو العمل بنفس الوسائل بفضولون اللف والدوران وتخدير الجماهير باستحالة الواجهة ، وابتعادها عن مسرح الاحداث بمسليات بدائية كالتهريج وافلام الجنس .

وللمرء ان يتساءل : هل قام الاديب العربي بدوره نحو القضايا المطروحة على امته اليوم ؟ غير ان الاجابة لن تكون بالجملة . فنحن نرى ان الاديب قد ادى دوره في بعض هذه القضايا مثل الاستعمار والامبريالية والصهيونية . حقيقة اننا قد نختلف على الطريقة والمستوى والعمق التي عالج بها الاديب هذه القضايا ، ولكن الذي لا ينكر هو ان المعالجة اخذت حقا على الاقل من ناحية الكم . اما القضايا الاخرى وهي لا تقل اهمية ، كحاربة الحكام المنحرفين والدعوة الى العصرية والتقنية والوقوف ضد الافات الاجتماعية كالخرافات والامية والطبقية فنور الاديب ازاءها ضعيف .

وما دعنا نتناول هذه ازواية - المحيط الاجتماعي والسياسي - فيجب ان نذكر ان هناك انجاسا في الوطن العربي يقف ضد المتقين . كان الحكام الاقدمون يقربون اليهم « العلماء » ويسترضون بهم او يشترتون رضاهم وصمتهم . اما معظم حكام اليوم ، وهم في الغالب نصف متعلمين او عسكريون بالهنة ، او مفامرون مبعون ، فانهم يضطهدون الاديب والمثقف عامة ، ويشنون عليه حربا احيانا باسم الانتفاخ عن القاعدة ، وحيانا بتهمة استيراد المبادئ ، وتارة يشيرون عليه طبقات الفلاحين والعمال بدعوى انه عنصر مشاغب ، واخرى يحرشون ضده رجال الدين بدعوى انه ملحد او عقلائي ...

★ ★ ★

ثم اعقب ذلك عصر من التدهور والهروب من مواجهة العلم والانكماش السياسي والديني وانتقوع داخل الحدود المعروفة « بدار الجهاد » في مقابل الجهة الاخرى المعروفة « بدار الحرب » ، فمذ الحروب الصليبية والعقل العربي في تقهقر مستمر بينما العقل الاوروبي في هجوم مطرد . وزاد الامر سوءا وقوع العرب سياسيا ودينيا تحت طائلة اقوام اشداء في الحرب لكن متخاذلين امام الانتاج الفكري ، ونعني بهم آل عثمان والمماليك ، يضاف اليهم ملوك الطوائف بالاندلس والامارات الانفصالية في المغرب والشرق . ومنذ ذلك دخل العقل العربي عصر الشعوذة وانحرافات والسحر والقدرية والتصوف وسادت انظرية والاقطاع .

ولم يكن الادب خلال تلك العصور كلها سوى صورة للمستوى الحضاري في العالم العربي والاسلامي . فعندما ازدهرت العلوم ونقل العرب من حضارات غيرهم وجدنا ادباء عمالقة كالتنبي والجاحظ وابي تمام . لكن تدهور العرب العلمي و ( السياسي ) لم ينتج سوى شعراء المدائح انبوية ، وادباء المحسنات البديعية امثال البوصيري وابن الوردي والمقري . ولقد شاع عندنا في المغرب العربي خلال عهد الانحطاط الحضاري ادب الرحلات والتصوف والبياتفيزيا ، وسيطرت الطرق الدينية سيطرة كاملة على عقول العامة . بينما سيطر الاجانب على مقاليد السياسة والتجارة والاقتصاد . وانزل الادب عن وظيفته كمحرك لتدوير الامة واصبح في خدمة الحكام للوصول الى منصب او جاه ، او في خدمة شيوخ الطرق .

وعندما واجه العرب اول تحد لهم من العلم الحديث متمثلا في جملة نابليون على الشرق وفي حملة شارل العاشر على الجزائر شعر الرواد منهم بالهوة التي تفصلهم عن ماضيهم ، وكما انتجت النهضة الاوروبية رجالا امثال ليوناردو دافنشي ، وروجي باكون ، وفرونيست ، انتجت النهضة العربية رجالا كابن العربي ، والطهطاوي وحيدان ، خوجة ، وحسن الططار ، وغيرهم ممن اخذوا بالعلم الاوروبي فدعوا الى تقليد الاوروبيين في اختراعاتهم للخروج من الظلام اندي كانت امتهم تتخبط فيه . وقد استجاب لهم بعض المسؤولين كمحمد علي بصر والامير عبد القادر في الجزائر وخير الدين باشا في تونس ، ولكن هؤلاء الدعاة لم يكونوا ادباء بالمعنى التقليدي ، بل كانوا اساسا رجال دين ثم تحولوا الى دعاة تجديد . اما الادباء المجددون فلم يكونوا قد ولدوا بعد . لقد ظلوا ينتظرون حواشي قرن منسذ بداية النهضة . ولم يحتضن بعض الادباء قضايا امتهم والتعبير عن آمالها في التقدم العلمي سوى في الفترة الواقعة بين الحربين ، ولكن حتى في هذه الفترة كان الادباء يشلون طبقة اقطاعية بورجوازية اكثر مما كانوا يعكسون آمال الجماهير ، ذلك ان الاستعمار التقليدي لم يسمح بالثقافة الا لعدد محظوظ من العائلات الكبيرة ، وقليل هم اولئك الادباء الذين جاؤا من عائلات متواضعة . غير انه يلاحظ على هذا العدد القليل انه سرعان ما اندمج في التيار الاجتماعي السذي كان يعتمد على اسس طبقية واضحة .

ونود ان نلاحظ انه خلال هذه المسيرة الطويلة من التراث العربي الاسلامي من جهة وتراث الحضارة الاوروبية من جهة اخرى نجد ان العقل كان يسبق العاطفة او بتعبير اكثر دقة ان العلم كان يسبق الادب فلم تزدهر الادب العربية الاسلامية الا بعد تمثلها للانتاجات العلمية العالية ، ولم تزدهر المذاهب الادبية الاوروبية الحديثة الا بعد مرور اوروبا بثورات علمية على يدي غاليلي ونيوتن وكوبرنيكس ، وباستور وانشتاين واضرابهم ، وقد يكون من محض اتكرار القول بان الادب العربي الحديث لم يصل الى المستوى العالمي لانه لا يقوم على اسس علمية ، فالمجتمع العربي المعاصر ما يزال لسوء الحظ مجتمعا متخلفا يحكمه الاقطاع والبداءة والامية ، وبالتالي فهو ما زال بعيدا كل

ويدعي التيار اثنائي ان اللغة كائن حي ، وانها لكي تعيش يجب ان نستعمل ، وان انتظار تطورها يعني قتلا ثانيا لها . فاستعمالها في الجامعة وفي المصنع وفي الادارة كليل بان يجعلها تتطور بسرعة . وتستجيب لحاجه المجتمع . وكان هناك نفاش حاد وحجج متضاربة . ولبن اصحاب التيار الاخير يؤمنون ايضا بان اللغة لا يمكن ان تنمو منزله عن المجتمع . فعلى المجتمع الذي تنمو فيه ان يكون ايضا مجتمعا متطورا فحصر اللغة في الجامعة او في المدارس الثانوية لا يكفي لتطورها . وعليه فانه اذا لم تدخل الثورة التكنولوجية الى المجتمع العربي ( في المصانع والورش والمخابر ومراكز البحث العلمي الخ ) فان اللغة العربية ستظل لا محالة لغة الشعور والخطابة وسنقى بعيدة كل البعد عن ميادين العلوم المحضة . ومن هنا اصبح تعلم اللغة متروضا بالانتماء الاجتماعي . ولكن هل المجتمع العربي اليوم مجمع منعدم مصنع ؟ طبعاً لا ! وماذا يستطيع الاديب ان يفعل ازاء ثورة تكنولوجية موجودة في المجتمعات الاخرى ، لكنها مفقودة في سبعمه ؟

ولكن الاديب العربي الذي يعاني من الاغتراب والاضهاد السياسي والاجحاف الاجتماعي يشترك مع ادباء العالم الاول في عدة ظواهر . فالشكوى من العصر وآلاته والاحساس بالاغتراب حتى مع توفر الشروط الحضارية أصبحت ظاهرة سائفة لدى ادباء اوروبا وامريكا . فقد قال بعض الباحثين منهم « ان ادباء اقرب يتكلمون من احساسهم بالضيق عندما يكتبون فسه . فهم يعيشون بمشاعر معزولة ويحسون انهم محكوم عليهم ان يعيشوا ايضا في مناطق معزولة ( كالقرى والمسكن الصغيرة ) او على هامش المدن الكبرى » وكلنا يعرف الثورة المعروفة باسم « الداديزم » او رفض كل شيء على اساس انه مستعمل وقديم ومعروف . فهي ظاهرة الرفض لوحشية الحضارة اليه التي جعلت الاديب يعيش غربة فائقة واحساسا خانقا بالعزلة . ولكن الاديب العربي ، ولا سيما اديب ما بعد الخامس من جوان ( حزيران ) 1967 ، لم يصل الى هذه الدرجة من الرفض ، غير انه يعاني هو الاخر عزلة من نوع آخر . بل لعله على الضد من ادباء الغرب اصبح يطالب بالدخول في عصر الآلة والالتجاء الى وحشية الحضارة لحل مشاكل امته الكثيرة . فهو يعلم مثلا ان تلك الهزيمة لم تحل بامته الا لانها كانت انسية اكثر مما ينبغي .

وهناك تيار في الوطن العربي يرفض التقنية بدعوى انها غير انسانية او بدعوى انها مستوردة . ويعتمد اصحاب هذا التيار على هبوط الاخلاق في المجتمعات المتحضرة ويستشهدون ايضا بضياع الشباب والادباء والفنانين في هذه المجتمعات . كما يستشهدون بمقالات وابحاث تندد بما وصلت اليه الحضارة الغربية من عنف ولا اخلاقية . ومقياس هؤلاء آراء شينقلر في كتابه ( تدهور الحضارة ) وبعض آراء المؤرخ توينبي وغيرهما . غير ان هؤلاء ينسون ان شينقلر وتوينبي وغيرهما لا يرفضون الحضارة في حد ذاتها . ولكنهم يرفضون بعض مظاهرها الدنيا ، ثم يحذرون مواطنيهم من مقبة ما هم صانرون اليه اذا لم يحافظوا على القيمة الاخلاقية للحضارة . فالعرب الذين يرفضون انتصر والتقنية استنادا الى هذه الدعاوي يخادعون انفسهم ، لانه لا احد من مفكري الغرب قد رفض الحضارة كظاهرة من ظواهر تطور الفكر الانساني ، اذا استثنينا طبعاً بعض الفوضويين ودعاة البدائية .

واذا كان هذا هو وضع الاديب العربي امام تراثه العلمي وامام مشاكل عصره وواقع امته ، فماذا سيكون موقفه نحو مستقبل هذه المشاكل ؟ هذا هو السؤال الذي سنحاول ان نجيب عنه بشيء من الاجاز . وقبل كل شيء سنقسم هذا الجزء من البحث الى شطرين : شطر يخص الاديب نفسه وشرط يخص مجتمعه .

ونبدأ بالشرط الذي يهم مجتمع الاديب . فالاديب لا يمكنه ان

ومن هنا اصبح الاديب يعيش في « استلابية » غريبة ، ولا يكاد يجد له مكانا فعلا في مجتمعه ، وهو يواجه المفوقات في كل مجال ينشده . هذا بالطبع اذا كان صاحب رسالة . فنحن هنا لا نتكلم عن « الادباء » او « المثقفين » الموالين والمداحين . ذلك ان هؤلاء يجدون في نفس المجتمع انحطوة والتمكين ، وحتى المكافاة بالجوائز ونحوها . غير اننا ندرك ان الاديب العربي يجب ان ينطلق من واقع علمي . وهل هذا الواقع متوفر له ؟ فطالما ظل معظم الحكام العرب يخافون « التقدم العلمي » ويتعوذون من التقنية كما يتعوذون من الشيطان ، لا يمكن للاديب في نظرنا ان ينطلق في الاتجاه الصحيح . ذلك ان وطننا ما زال وطننا زراعيا ! والصناعة لم تدخله الا في شكل بدائي او هي ما تزال في ايدي الاجانب ، اما العلوم المحضة فما يزال تدريسها في بعض الجهات محرما ، وفي بعضها الاخر ما تزال محتشمة ، وفي اخرى تقليدية . فالمحيط الذي يتفاعل فيه الاديب ما زال غير علمي . فكيف نطلب منه ان يكون « علميا » في ادبه ، في لفته وفي تصوراتها بينما هو يعيش بيئة تقليدية لا تؤمن بالعلم ولا تعامل معه ؟

ولنضرب مثلا على ذلك باللغة ، وهي بدون شك اداة الاديب الفعالة في نقل معارفه ومشاعره الى الاخرين . انها ما زالت تعاني من التحديدات العلمية ، والفقر في الالفاظ المستحدثة . وكثيرا ما يجد العلماء ، والادباء ايضا ، صعوبة في نقل افكارهم بادة واضحة محددة .

حقا ان اللغة العربية قد واجهت هجومات مضادة عنيفة ومفرضة في بعض الاحيان . فقد حاربها الاستعمار ليفرض لفته وحضارته بدلها وهذه وضعية معروفة في المغرب العربي ، ولا سيما في الجزائر . وطمن فيها بعض المستشرقين ليتوصلوا من خلال ذلك الى محاربة القرآن والاسلام عامة . وقد عانت اللغة العربية من عصور طويلة من الانحطاط الفكري والسياسي لامة العربية ، فكانت التركية هي لغة الحكم والدواوين في كثير من البلاد العربية ، بينما برزت اللهجات المحلية في اتحية اليومية في مناطق اخرى . وانحصرت لغة الثقافة في طائفة من انقضاة والمفاتي وشيوخ الطرق وبعض المدرسين والشعراء التقليديين ، وحينما واجه العرب الاستعمار الحديث تم الاستعمار الجديد والصهيونية وجدوا لغاتهم ما تزال تتخبط في التقاليد وتستمد قوتها من تراث حضاري جيد في ذاته لكنه غير متطور . واصبحت مسارة الحضارة الحديثة هي شعار العصر . وقسام المعارضون للعربية يدعون بانها ليست نفة علم وانما هي لغة ادب وشعر . وانها لغة غنية بالفاظ الابل والصيد والفروسية والغزل ، ولكنها فقيرة في الفاظ الطب والصيدلة والفيزيا والكيميا والاختراعات الجديدة . وجاءت الجامع اللغوية لتعاج هذه القضية ، ولكن هذه المؤسسات اللغوية ما تزال بعيدة عن تلبية الحاجة الملحة والمستعجلة التي يواجهها الاديب والمثقف والطالب والاستاذ .

واذكر انه اثناء نقاش عن التعريب في الجزائر قد طرح سؤال محتواه : هل علينا ان نستعمل اللغة ثم نطورها ، او ننظر للغة حتى تتطور ثم نستعملها ؟ قد يبدو هذا السؤال ساذجا او غير وجيه . لكن القضية كانت مطروحة بحددة ، وكان على المعنيين ان يجيبوا عليه . فقد كان هناك تياران :

تيار يقول ان اللغة العربية نفة شعر وادب وليست لغة ادارة عصرية وعلوم حديثة تدرس على مستوى الجامعة وتستعمل في الابحاث العلمية . وان علينا « مؤقتا » ان نستعمل لغة اجنبية متطورة في المرحلة الحاضرة ثم نستعمل العربية عندما تصبح هي ايضا لغة علمية . ويدعي اصحاب هذا التيار ان الوقت ليس في صالحنا ، وان علينا ان نطور بسرعة ، وان العربية على حالتها الراهنة لا تساعدنا على هذا التطور .

ما زالت في الواقع دون المستوى ، بل لعلها لا تشعر بهذه الحاجة القومية . ان كثيراً من جامعاتنا تمنح الشهادات بالمجان ، وتكون اطرار غير ذات كفاءة ، وتعتمد التعليم مجرد والدروس النظرية وحشو امخاخ الطلاب بمواد ممللة للحفاظ الاعمى لا ملاءة للتنامس والتطبيق ، وهي ما تزال عالة في اسانذتها وادواتها وحتى في لغتها على الاجانب ، وكثير من اسانذتها العرب قد تكونوا « بسرعة » في جامعات اجنبية وعادوا بالقاب ضخمة ولكن بمحتوى فارغ . كذلك فان كثيراً منهم قد توقفوا عن الانتاج منذ ان دخلوا الحرم الجامعي ، بينما انفروض ان يكون دخولهم لهذا الحرم نقطة الانطلاق في الانتاج المنظم الهادف الخلاق ، حقا ان هناك ظروفا تخرج عن طاقاتهم كاستخدام الوسائل وضعف المقابل المادي ، وقله الاهتمام بالابحاث العلمية في مجتمعاتنا ، ولكن المسؤولية ستظل بالدرجة الاولى على عاتق هؤلاء ، وقد يتساءل البعض عن دور الاديبي في هذا كله ، تكن انواعه انه هو انتاج هذه البيئة التي عليه ان يشارك في تغييرها لصالحه وبالتالي لصالح الجميع .

وتستطيع أجهزة الاعلام ان تلعب دوراً هاماً في خلق المناخ العلمي في المجتمع العربي ، وهو المناخ الذي سيتفاعل معه اديبي الثورة التكنولوجية ، فالتلفزة والافلام والاذاعة والصحافة وغيرها أصبحت وسائل مباشرة لنقل المعارف وبث التسوية لدى الجماهير وازالة الحواجز بين اللغات والثقافات المتصارعة . وهي في الواقع تهمد الطريق لاتصال الاديبي مع جمهوره ، لا سيما اذا اعتبرنا شركات النشر والتوزيع الحديثة من وسائل الاعلام ايضا . حقا ان بعضهم قد رأى مهمة الاديبي الحق تتمثل في دفاعه عن « الثقافة ضد بربرية وسائل الاعلام الحديثة » . ولكن الواقع ان هذا يصدق على اديبي الغرب الذي وصل مجتمعه حد التخمة العلمية وسيطرت عنده وسائل الاعلام ( والاعلانات ايضا ) سيطرة مخيفة على العقلية العامة . اما الاديبي العربي فما تزال وسائل الاعلام في وطنه ، رغم تقدمها ، متخلفة وهي أداة نقل لا أداة خلق . وعلى كل فنحن نعتقد انها تقوم في هذه المرحلة بخدمات جلى للاديبي نفسه وتوصيل صوته الى الجمهور .

ولكي نخلق هذا الجو العلمي في الوطن العربي علينا ان نهتم بعدة اشياء اخرى كالترجمة . ونعني بالترجمة هنا ترجمة الكتب والآثار العلمية بدل الابدبية . فاهتمام مترجمينا حتى الآن ينصب على الكتب الابدبية من روايات وقصص ونحسوها ، او على الكتب السياسية والاجتماعية ذات الطابع المثير كالثورات وادوار بعض الشخصيات المغامرة ، او على الكتب الجنسية والبوليسية الخ . . حقا ان بعض الجامعات تلجأ الى الترجمة ، وهي تلك التي بدأت تجربة التعريب ، ولكن معظم جامعاتنا ما زالت تدرس بلغات اجنبية بطريقة مباشرة . ونعتقد ان وضع برنامج لترجمة أهم الكتب العلمية التي تصدر في الدول المتقدمة ولنصف اليها ما يسمى بالقصص العلمية المتخيلة ، سيحدث ثورة فكرية في الوطن العربي ، وستكون هذه الثورة مادة خصبة يستغلها الاديبي وتجعله يغير من مقاييسه التقليدية .

وهناك نقطتان متصلتان بهذا الموضوع هما اصدار المجلات المتخصصة في العلوم والاختراعات الحديثة ، وفتح حوار متصل مع الثقافات الاجنبية . انني لا انكر هنا الجهود التي نبذلها بعض الجهات في نشر مجلات علمية ، لكنني على يقين من ان هذه الجهات نفسها لا تنكر ان ما تقوم به يعتبر جهداً « متواضعاً » جداً ، وانه ليس في مستوى المرحلة التي نريد دخولها ، والتي نطلب من الاديبي ان يتمثلها . ودعني اطلب هنا من المجلات الابدبية نفسها ان تصدر أعداداً خاصة بالموضوع الذي نتناوله وهو الاديبي والثسورة التكنولوجية ، انها بلا شك ستساهم بذلك في احداث حركة تنوير عامة ، وفي اشعار الاديبي بان هناك قضايا اخرى عالية تشغل اذهان قرائه . اما الحوار

ينتج الا اذا توفرت بعض الشروط الموضوعية ، ولعله من نافله القول ان نكرر بان اول شرط هو توفر الحرية المطلقة للاديبي . فكل فيد على حريته ، مهما كان شكله ، في القول وفي الرأي وفي الكتابة وفي التنقل هو هدم تلقيم التي نطالب الاديبي على أساسها بالانتاج المسامر لعصر الثورة التكنولوجية . واذا كانت المطالبة بالحرية فضية قديمة فانها في النصف الثاني من القرن العشرين فضية مستعجلة واكيدة . ويتصل بانحرية تحقيق الديمقراطية الاجتماعية والسياسية . فالحضارة الحقيقية للاديبي وغيره من المواضين توجد في النظام الديمقراطي . ومن الاسف ان معظم النظم العربية المتصارعة تطبق انواعاً اخرى من اشكال الحكم باستثناء الديمقراطية . وتفاعل الاديبي مع قضايا العصر والمجتمع في حاجة الى مشاركة جميع العناصر الاجتماعية في الوطن العربي ، ولكن ذلك لا يمكن ان يتحقق الا في جو من التفاعل انعام الذي هو معنى الديمقراطية .

ولكي نتحقق الديمقراطية والحرية ، لا بد من القضاء على الاقطاع . ان هذه الظاهرة تشكل عقبة كداء في طريق التطور والتقدم . ومن المعروف ان المجتمعات الاوروبية المتطورة اليوم لم تصل الى ما هي عليه الا بعد ثورات دموية ( فرنسا ، روسيا ) لتتخلص من الاقطاع وفتح عهد جديد من العلاقات الاجتماعية . وكذلك فعلت اليابان عندما عزمت على دخول عصر التصنيع والتقنية . بل وكذلك تفعل الصين اليوم . حقا ان بعض البلاد العربية قد اتخذت خطوات في هذا السبيل ، ولكنها ما زالت تمر بمرحلة الخطر التي لن تسلم من الهزات وربما التكتسات . ودور الاديبي في عدم الاقطاع لا يقل اهمية عن دور العامل والفلاح . بل ربما فافهما نظرا للوعي الذي يتمتع به دونهما .

ويتصل بهذه النقطة نشر التعليم في جميع مراحل ، وجعله ديمقراطياً يعم سائر طبقات الشعب ويفتح المجال امام ألواهب الخفية ، ويجب الالاح هنا على تعليم المرأة ايضا . فالمجتمع العربي في عصر التقدم العلمي الباهر لم يعد يستطيع الاستغناء عن مشاركة المرأة في القطاعات الحيوية . ونعتقد انه قد مضى ذلك الزمن الذي كانت فيه المرأة مجرد موضوع للاديبي فيها يتنقل وبها يلهو وينتهي دورها عنده وعند مواظنيه بانطباق اربعة جدران عليها . فاديسب الثورة التكنولوجية عليه ان يغير نظره انى المرأة فيعتبرها رفيقة له في طريق التقدم الاجتماعي بدل اعتبارها أداة للهو واللجون .

واذا كانت المدرسة الجديدة هي التي ستخلق لنا الاديبي الجديد ، فان الجامعة هي التي تكون هذا الاديبي تكويناً ادبياً وعلمياً في نفس الوقت . وقد يكون في هذا القول بعض التناقض لان الجمع بين العلم والادب يكاد يكون مرفوضاً عند الذين ما يزالون ينظرون الى الاديبي على انه الشخص الذي لا يخضع لقواعد علمية او منطقية . غير اننا نطالب بضرورة التكوين العلمي للاديبي ايضا بجعله يخضع للعقل الرياضي اذا صح التعبير . انيس هو الذي سيفتح لنا المصنع والمخبر والطائرات والحافلات ، واندبابات ، والفواصات ، وسفن الفضاء وخارطة القمر في روايات وقصص ومسرحيات ، واشعاراً حقا ان هذا يدخلنا في الحديث عن ثقافة الاديبي المعاصر ، وهو حديث طويل وجدلي ولكن حسبنا هنا ان نؤكد ان « الثقافة العلمية » للاديبي أصبحت لا غنى نه عنها ، وانها من مستلزمات هذا العهد الجديد انذي نتحدث عنه ، وهو عهد الثورة التكنولوجية .

والحديث عن الجامعة حديث ، كما يقال ، ذو شجون . فهناك عدد ضخم من الجامعات العربية ، بعضها حديث العهد وبعضها قديم نسبياً تجاوز عمره الخمسين سنة . ولكن هذه الجامعات التي كنا نتوقع منها ان تكون مراكز للبحث العلمي المحض الذي يفتح امام المجتمع العربي مجالات الذرة ، والفضاء والتقنية بمختلف عناصرها

مع الثقافات الأخرى فيفتح أمام الأديب مجالات بكرا وتخرجه من العزلة التي يفرضها بعضهم عليه باسم التراث وباسم الخوف على « عقله الصغير » من مرض الأيديولوجيات الأجنبية ، ونحو ذلك .  
ولكن أكبر عمل يمكن أن يتحقق ويشري تجربة الأديب العربي ، ويفتح أمامه آفاقا لا حدود لها في المستقبل هو تحقيق الوحدة العربية .  
إن الأديب سيظلون في نظري أسرى الأقليمية وأسرى النظم السياسية ذات النظرة الضيقة ، وأسرى الدكتاتوريات التي يساندها الإفطاع والخرافات الدينية ، ما تم تحقيق الوحدة الشاملة للوطن العربي .  
وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك إمكانات ضخمة بشرية وطبيعية واقتصادية ستجعل الثورة التكنولوجية في بلادنا لا حلما نسعى لتحقيقه ، ولكن تجربة نمارسها ونعيشها . ولذلك فإن دور الأديب في العمل على تحقيق الوحدة يجب أن لا يقل عن دوره في العمل على تحقيق التقنية والنهوض بأمته صنائيا . ويجب أن نحذر بأن كل محاولات التقنية سنظل جزئية وقليلة انفعالية ما لم تكن في ظل وحدة عربية شاملة .

ولعله أصبح من الواضح بعد ما سبق أن الأديب ليس هو الذي يخلق التقنية ، ولكنه هو الذي يهيئ الجو لسيادتها وتحبيب الناس فيها ، فالأديب هو إنتاج التقنية وليس منتجا لها ، ورسالته تتمثل في نظري في التبشير لهذا العصر الذي تسود فيه الوسائل العلمية الحديثة وتصبح أمته فيه تسيطر على قوى الطبيعة بقوى العقل ، ونساهم مع الركب المتحضر في دفع عجلة التقدم الإنساني .

وأكثر خدمة يقدمها الأديب لأمته في عصر التقنية هي حربه ضد الشعوذة والخرافات ، والقدرية والتواكل وغيرها من مظاهر التخلف ، فقد مكنت القرون السابقة إلى هذه العناصر انهدامة ، وأصبح الفرد العربي خيلاها لا يؤمن بنفسه وتكن بقوى خارقة وغيبيات وميتافيزيقيات ، وزاد الاستعمار الحديث هذه العناصر تمكينا لأنها تساعد على الاستقلال المطلق لخيرات الشعب . والأدهى هو أن بعض النظم العربية المعاصرة ما زالت تبقي على هذه العناصر الخطيرة لا إيمان بها ، ولكن لأنها تنوم وتنسب وتلهيه عن قضاياها المصيرية .  
واعتقد أن مهمة الأديب هنا على جانب كبير من الخطورة . فلكي ندخل عصر التقنية لا بد من محاربة هذه الآفات عن طريق الأدب ، وذلك بخلق أدب عقلائي هادف منفتح .

وهناك آفات أخرى تتعلق بالأدب نفسه . فأدينا ما زال يتن تحت وطأة الخيام والنصاري والفردية وغيرها من مظاهر البداءة . كما أنه لم يتحرر من روح الخلاعة والمجون ، وهي أيضا تقاليد مورثة عن العصور التي ساد فيها الانحطاط السياسي والاجتماعي وسادت فيها حضارات أخرى غير الحضارة العربية الحقة . والأديب أيوم مطالب بالثورة على هذه الظواهر الدنيا في مجتمعنا واستبدالها بطبقات خيرة جديدة تتيح للعقل العربي أن ينمو وينطق في مجالات الإنتاج الحضاري القائمة على المشاركة والجماعية والإيجابية . والشعوب التي ابتليت بالاستعمار المباشر ، تدرك أن مفكره ( الاستعمار ) قد وضعوا كل إمكاناتهم المادية والمعنوية لتفتيت الطاقة البشرية بوسائل اللهو والخلاعة والكحول ، والعزلة في الجبال والفيافي ، وتشجيع الخلافات والقبليات والمطامح الشخصية ، ولا نعتقد أن أعداء الأمة العربية قد انتهوا . فما نشاهده في مجتمعنا من روح الاستسلام والخوف ومن الأفلام والمجلات المنحطة ، ومن حيرة شبابنا وفلقهم ، ومن توجيه نحو النظريات والبيزنطيات والابتعاد عن العلوم انحية والعملية ، كلها في نظري مظاهر لتدخل أعدائنا غير المباشر في حياتنا اليومية ، ولذلك فإن رسالة الأديب العربي في محاربة ما أسميناه بالخلاعة والقدرية وغيرها ، تكتسي أهمية خاصة في وقت نطمح فيه إلى النهوض على أساس علمي سليم .

وبعد فإن موضوع « الأديب والثورة التكنولوجية » يعتبر في

نظري قد جاء في الوقت المناسب ، بل نعله قد تأخر عن وقته . فقد كان علينا أن نعالجه ونهتم بإبعاده القومية والدولية منذ أمد طويل .  
وها نحن نشاهد اليوم أجهزة التعبير في العالم المتقدم تتحدث عن القرن الواحد والعشرين ومواجهة مشاكله العقلية والعاطفية للإنسان . وما زلنا نحن نهتم ببقية القرن العشرين ، وربما لم تكن على استعداد لمواجهة هذه المرحلة من جميع الوجوه . ذلك أن الشعور بأهمية هذه المرحلة لا يكفي ، ونعتقد أن إمكانات الأمة العربية لم تستغل كلها بعد في هذا الاتجاه - الاتجاه العلمي . كما نعتقد أن الأديب العربي ، رغم ما يعانيه من اضطهاد وعزلة ، ما زال بعيدا عن تلبية حاجات هذه المرحلة ، لا في روحه ولا في تعبيره ولا في ثقافته الأساسية .

ولكن هذا لا يمنعنا في الاختصاص من أن نركز على بعض النقط .  
وأبوه إن العصر العربي عامه والأدب خاصة ما زال دون مستوى الثورة التكنولوجية .

ونابها إن المجتمع العربي ما زال يعاني من مخلفات الماضي وفهود الحاضر ولم يواجه بعد عصر التقنية بجد رغم الهزات التي عرفها ، بس الهزات التي جربها في أكثر من مناسبة . وهذا راجع إلى ضعف العقلية العلمية لدى قادة الرأي في الوطن العربي وبالتالي ضعف الوعي بالعصر لدى الجماهير .

وثالثها أنه لكي نطالب الأديب بإنتاج يواكب حاجات النصف الثاني من القرن العشرين علينا أن نطالب الأجهزة الأخرى في الوطن العربي بتطوير اللغة حتى تصبح لغة علمية ، وتوفير وسائل البحث العلمي في مستوى الجامعات وغيرها ، ورفع القيود على آرائها والتعبير فلا يمتن أن يبدأ الأدب ثورة تقنية ولكن عليه أن يتمثلها .

ورابعها أننا نعتقد أن أهم حادث يساعد على دخول العربي عصر التقنية هو تحقيق الوحدة الشاملة . فإلى جانب الضعف الذي نسب به الأقاليم العربية متفرقة ، هناك تفاوت في مستوى التقدم الحضاري ، ولكن تحقيق الوحدة العربية سيجعل من ذلك الضعف قوة وسيجعل التفاوت الحضاري تكاملا في سبيل النهضة العلمية ، وساطل متسانما نحو مصير التقنية ( التي هي مظهر من مظاهر القوة ) في بلادنا إذا ظلت الأوضاع فيها على النحو الذي نشاهده من التنافر والتشتت والضعف .

وأحسب أننا في غنى عن تدخل في متاهات فلسفيه عن اثر التقنية على الإنسان . إن بعضهم يتخوف من أن التقنية ستذهب بالإيمان وتفتح المجال أمام سيادة العقل وحده . وبعضهم يتخوف من أن الإنسان قد أصبح آله في البلدان التي نسميها متقدمة ، وأنه قد أصبح شقيا أكثر منه سعيدا بدل أن يحدث العكس ، نتيجة التقدم الآلي ، بل إن آخرين يحذرون من أن الدخول في عصر التقنية سيجعل الشعوب تتخلى عن خصائصها القومية ، وتنتج نحو التفكير العالمي الذي يهمل الإنسان أينما كان . وهنالك آخرون يشيرون قضية طيفان العلم على الأدب وظيفان المادة على الروح ( أتدين ) ، غير أننا إذ نذكر أن هذه التخوفات يجب أن لا نوليها أهمية كبيرة لأنها صادرة عن قوم بلغوا شأوا عظيما في الحضارة وأصبحوا يتحسسون مواقع أقدامهم آزاء ذوي المدافع ورجات التجارب الذرية فاستبد بهم الخوف من الحرب العالمية الثالثة وتخريب الإنسان لمنتجاته الحضارية . أما نحن فما نزال في الواقع حقل تجارب لهؤلاء التخوفين من التقدم العلمي . كذلك فليس علينا من حرج أن نرحب بالتقدم العلمي وأن ندعو كل العناصر الحية في الوطن العربي ، وعلى رأسهم الأديب ، إلى تبني هذا الموقف إنفاذا لامتهم من برائن التخلف والعمل على جعل وطنهم لا حقل تجارب علمية لغيرهم ولكن مصنع إنتاج حضاري لأنفسهم ولأطفالهم .

أبو القاسم سعد الله

الجزائر